The concept of poetry and its function according to the poets of Algeria Through the book "Algerian national poetry" For Ahmed Sharafi Al-Rifai

Received: 01/11/2024; **Accepted:** 18/05/2025

زبيدة بوغواص *

قسم الفنون البصرية وفنون العرض، كلية الفنون والثقافة، جامعة قسنطينة 3 " صالح بوبنيدر"، الجزائر

مفهوم الشعر ووظيفته عند شعراء الجزائر من خلال كتاب "الشعر الوطني الجزائري" لـ أحمد شرفي الرفاعي

الكلمات المفتاحية:

مفهوم؛
شعر وطني جزائري؛
وظيفة؛
شرفي الرفاعي.

ملخص

يعد الشعر الجزائري تعبيرا صادقا عن الأوضاع السياسة والوطنية بشكل عام، وقد اعتنى به شعراء الجزائر عناية كبيرة خاصة في فترة الاستعمار الفرنسي، وعيا منهم بوظيفة الشعر في نشر الوعي بتلك القضايا، والتطلع إلى التحرر وتحقيق النهضة في جميع مجالاتها، وقد تناول هذا المقال هذه التيمة من خلال قراءة في كتاب "الشعر الوطني الجزائري" لشرفي الرفاعي، حيث تأتي أهمية هذا الاختيار من كونها تنبع من فصول الكتاب التي جمعت بين ما هو تأريخ للشعر الجزائري، وبين ما هو وظيفي وفني، اعتمادا على المنهج الوصفي، وقد توصل إلى نتائج منها أن الشعر الجزائري كان منبرا للتعبير عن قضية التحرير، مع الوعي بالوظيفة الجمالية للشعر.

Abstract

Algerian poetry is a sincere expression of the political and national situation in general, and Algeria poets have taken great care of it, especially in the French colonial period, aware of the function of poetry in spreading awareness of these issues, and aspiring to liberation and achieving renaissance in all its fields, and this article dealt with this theme through a reading in the book "Algerian National Poetry" by Charfi Al-Rifai, where the importance of this choice comes from the fact that it stems from the chapters of the book that combined what is the history of Algerian poetry, He showed what is functional and artistic, depending on the descriptive approach, and reached conclusions including that Algerian poetry was a platform for expressing the cause of liberation, with awareness of the aesthetic function of poetry.

Keywords:

Concept;
Algerian national Poetry;
Function;
Sharafi Rifai.

* Corresponding author, e-mail: zebida.boughouas@univ-constantine3.dz

Doi: https://doi.org/10.34174/0079-036-002-055

© Constantine 1 University, Algeria, 2025.

مقدمة:

مما لا شك أنّ الشعر الجزائري في فترة من فترات حياته لم يكن يشكّل مفهوما واحدا عند جميع الشعراء الجزائريين، شأنه شأن أي حركة شعرية تتطور، وتجدد نفسها، بالإضافة إلى الجمالية الفنية التي يهدف إليها ذلك الشعر، إلا أن الشعر الوطني الجزائري في مرحلة ما كانت له وظيفته، تبعا لطبيعة تلك المرحلة بفعل موجة الاستعمار الفرنسي التي شكلت بؤرة مركزية يلتقي عندها كل الشعراء الجزائريين.

هي التيمة التي تناولها أحمد الرفاعي شرفي-رحمه الله- في كتابه الموسوم بـ"الشعر الوطني الجزائري" لما رأى أن هذا الشعر يعبر عن الجزائر في فترة من فترات حياتها العصيبة التي عايشتها مع الاستعمار الفرنسي، ومدى ارتباطه بوظيفة الدفاع عن الهدف المشترك بين شعراء الجزائر، والتفافهم حول القضية الوطنية، والتطلع نحو الأفضل، والتعبير عن المحتوى الروحي المليء بصور الثورة والتمرد، والنزوع نحو التجديد في الجانب الفني، بالخروج من الإطار التقليدي للقصيدة إلى الشعر الحديث.

أما الفترة التي يقصد إليها مؤلف الكتاب هي مرحلة النهضة الأدبية في الجزائر، والتي ارتبطت بالصحافة الوطنية التي وجد فيها هؤلاء فضاء للتعبير عن تجربتهم الشعرية، وعن مواقفهم تجاه القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية والقومية، وقد حددها ما بين 1925-1954، ومن هنا تنبع أهمية هذه الورقة من الإشكالية التي تطرح نفسها وفق السؤال التالي: كيف أبرز كتاب " الشعر الوطني الجزائري" لأحمد شرفي الرفاعي الحركة الشعرية في الجزائر إبان فترة من فترات التاريخ؟ وما هي الوظيفة التي اضطلع بها؟

انطلاقا من هذا السؤال الإشكالي، فإن دراستنا تهدف إلى توضيح مفهوم الشعر ووظيفته عند شعراء تلك المرحلة، حتى تتم الاستفادة من هذا المنجز، حيث يفترض أنه وثيقة تاريخية هامة للشعر الجزائري.

1.تقديم الكتاب:

لقد صدر هذا الكتاب "الشعر الوطني الجزائري" للدكتور أحمد شرفي الرفاعي، ضمن منشورات دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع بعين مليلة، الجزائر، سنة 2010، وهو يقع في 318 صفحة من الحجم المتوسط، وقد تشكّل من مدخل وأربعة فصول، تتصدرها مقدمة للمؤلف، وتلي هذه الفصول خاتمة، وملحق لتراجم الشعراء والأعلام، ومصادر ومراجع الكتاب وفهرس المواضيع*.

1.1. مقدمة الكتاب:

تميزت المقدّمة برصيد فكري ومعرفي ثرّ، بسط فيها شرفي الرفاعي الأرضية التاريخية والفكرية والمعرفية والمنهجية التي اشتغل عليها، من حيث الحديث عن الخطوات والإجراءات المنهجية التي اعتمدها في أقسام الكتاب وفصوله، ومقاربته للمصطلحات التي قام عليها عنوان الكتاب، أي "الشعر"، الوطن" والجزائر" ولماذا التركيب بين هذه الثلاثية، ومما ذكره، أن: **"الشعر الوطني الجزائري بقدر ما هو قصة جريمة الاستعمار في حق الإنسانية والحضارة، فإنه في الوقت نفسه التفاعل بين الشعر باعتباره من الفنون الجميلة، وبين الجريمة الحضارية بكل جوانبها المادية والمعنوية"[1]**، فالشعر إذا مثله مثل الكائن البشري يحتاج إلى وطن يحتضنه، هذا الوطن الذي لا يعني الحيز الجغرافي فقط بقدر ما يعني الحضارة والثقافة والقيم والهوية، وإن هذا الشعر إذ يعترف بهذا الجميل لهذا الوطن الجزائر، فإنه يتفاعل بالتأكيد مع قضاياه المصيرية، وقد تمثلت في الاستعمار الذي قصد كل ما هو استراتيجي في هذا الوطن، فاتخذ شعراء هذا الوطن الكلمة سلاحا يعبّرون بواسطتها عن رفضهم، أو ألمهم، أو حتى عجزهم أمام هذه القوى الطاغية، وهذا في فترة هامة من تاريخ الجزائر، أطلق عليها الكاتب "النهضة"، وقد قصد بها النهضة الأدبية عامة والشعر خاصة، أما الفترة التي أفردها لدراسة الشعر الوطني الجزائري فقد حددها على مستوى العنوان وهي 1925-1954، وإن من أهم الاعتبارات التي ذكرها في تحديدها، تتمثل في أنها المرحلة التي ظهر فيها الأدب الجزائري الحديث شعرا ونثرا على أعمدة العناوين الإعلامية للصحافة الوطنية، معبرا عن طموحات وآلام هذا الشعب.

ومما تميزت به المقدمة أيضا على المستوى الشكل الدقة في التعبير وسلاسة الأسلوب، ويتراءى ذلك في الاقتصاد اللغوي، ووضوح اللغة مع قوتها وجزالتها، مع حسن ترتيب أفكارها، والبرهنة عليها، وهي كلها خصائص ينزع إليها المتلقي، ويجعله يهفو إلى قراءة هذا المنجز، ويدرك من خلالها أنه أمام علم من أعلام الكتابة في الإبداع والتأليف.

2.1.المدخل

قدّم فيه المؤلف العوامل السياسية والثقافية والاجتماعية والدّينية التي أثّرت في الشعر الجزائري في مرحلة محل الدراسة، وقد أدرج هذا المدخل تحت عنوان "صورة الحياة الوطنية خلال الربع الأول من القرن العشرين".

3.1.الفصل الأول

لخص هذا الفصل المفهوم السياسي للوطنية في الشعر وتطوره عبر ثلاث مراحل هي:

-المرحلة الأولى (1925-1931).

-المرحلة الثانية (1931-1940).

-المرحلة الثالثة (1947_1954).

ففي المرحلة الأولى كان تعبير الشعراء عن حب الوطن والإعجاب بطبيعته، كما تطرق بعضهم إلى الجوانب السياسية دون الإفصاح عن موقف واضح وجريء، أما المرحلة الثانية فقد تبنى الشعراء الجزائريون موقف الدفاع عن الحقوق الوطنية بوضوح ودون مداراة، بالإضافة إلى التعبير عن المشاعر الدينية والأخلاقية في المناسبات الخاصة بها كالعيد الأضحى مثلا، مع وصف الأوضاع السيئة بنبرة لا تخلو من الاستياء والغضب، وفي المرحلة الثالثة من النهضة كانت من أقوى المراحل، إذ تبنى الشعر الوطني الجزائري الدعوة إلى الثورة، وبذلك نلاحظ مدى النضج الفكري لمفهوم الشعر الوطني السياسي الوطني.

4.1.الفصل الثاني:

وقد عنونه المؤلف بشعر المناسبات الدينية والثقافية والقومية، فالمرحلة التي مرت بها النهضة الجزائرية، وقد واكبها الشعر الجزائري شهدت عدة مناسبات، اختلفت في طبيعتها بين ما هو ديني كمحاربة الطرقية التي جندها المستعمر لتشويه العقيدة الإسلامية، أو درء تهمة التعصب أو العنصرية عن الإسلام، إلى غير ذلك من المضامين ذات البعد الديني، والثقافية كالدعوة إلى النهضة، وطلب العلم من أجل تحرير الوطن فكريا وسياسيا، ولم يخل الشعر الجزائري من البعد القومي، حيث تضمن العديد من القصائد التي تشارك الوطن العربي محنه، ومنها احتلال الفرنسيين دمشق، والقضية الفلسطينية، وإعدام المجاهد الليبي عمر المختار من طرف الاستعمار الإيطالي، وغيرها من القضايا القومية.

5.1.الفصل الثالث: تناول فيه المفاهيم الفنية للشعراء الجزائريين، كما تتجلى في شعرهم أو آرائهم.

6.1.الفصل الرابع: بيَّن فيه المؤلف ما يجمع بين الشعر الوطني الجزائري، بالشعر الوطني العربي.

2. مفهوم الشعر عند الشعراء الجزائريين:

يرى أحمد شرفي الرفاعي بداية أن مفهوم الشعر لدى الشعراء الجزائريين في فترة ما بين 1925-1954 كان على صلة بالشعر القديم وتراثه، وفي الوقت نفسه تأثر ببعض التيارات الأدبية الحديثة التي أخذت تظهر على مستوى الشعر العربي، وإن هذا المفهوم إما أنه يظهر على مستوى القصيدة، وإما يصرح به الشعراء، وفي هذا الإطار يمكن طرح أسئلة من مثل:

-ما مفهوم الشعر عند شعراء الجزائر في الفترة التي حددها المؤلف للدراسة؟

-ثم ما مظاهر هذا المفهوم؟

-هل نزع هذا الشعر إلى التجديد؟ وإلى أي مدى تحقق ذلك؟

-ما نوع التجديد الذي تمظهر على مستوى هذا الشعر؟

بداية يمكن القول إنه يقصد بمفهوم "التقليد" ذلك الشعر الذي يسير على نمط محدد في بحوره وأوزانه، متبعا تلك الأوزان التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي كما يلتزم قافية موحدة وحرف روي موحد، ويأتي فيه البيت مكونا من صدر وعجز ومصرع في أول القصيدة، إن هذا المفهوم هو الذي نجده عند أغلب شعراء المرحلة الأولى للنهضة الجزائرية، أما مفهوم "الحديث" فإن المقصود به -في هذا الكتاب- التأثر بذلك التيار الحداثي الذي بدأت تداعياته تظهر على مستوى الشعر العربي، خاصة على مستوى التنظير، وذلك بظهور "كتاب" الديوان" للعقاد والمازني، وكتاب "الغربال" لميخائيل نعيمة، والذي سنجد تأثيره واضحا عند شعراء المرحلة الثالثة، وعليه سنحاول أن نستجلي مفهوم

الشعر سواء التقليدي أو الحداثي وفق المنهج الذي تبناه المؤلف، حيث أفرد لكل شاعر مساحة حلل فيها اتجاهه ومفهومه للشعر، وهذا ما سنحاول أن ننتهجه.

1.2.مفهوم الشعر عند أبي يقظان:

يذكر الكاتب أن أبا يقظان حدد مفهومه للشعر في مقدمة ديوانه، كما يلي: **«الشعر وحي يوحيه الخيال [...] فينطلق به اللسان، فينشده الدهر قرونا"[2]**، هذا يعني أن الشعر هو تعبير عن الوجدان، وهو ما يتفق وذلك التيار الأدبي الذي كان يدعو إلى التجديد والثورة على كل ما هو قديم، وهو ما يمثله العقاد والمازني في كتاب "الديوان"، الذي لخص مفهوم الشعر كما يلي: **"الشاعر العظيم من يشعر بجواهر الأشياء"[3]**، ويعلل مؤلف الكتاب هذا الاتجاه عند أبي يقظان باتصاله بإنتاج المشرق عن طريق الصحافة أثناء تواجده بتونس، إلا أن أخذ أبي يقظان بمفهوم الشعر الذي جاءت به جماعة الديوان لم يتعد النظري، وفي هذا يقول الرفاعي: **"إلا أنّ الدارس لوطنيات أبي اليقظان بصفة خاصة ولشعره بصفة عامة، يجد أن صلة آرائه في مفهوم الشعر بآراء جماعة الديوان في القضية نفسها، اقتصرت على تقليده لهم تقليدا نظريا دون أن يمتد موقفه إلى شعره نفسه ويطبق عليه رأيه بنا، كما فعل جماعة الديوان حين طبقوا مفاهيمهم الأدبية الجديدة على شعرهم"[4]**، كما يذكر الرفاعي أن شعر أبي يقظان كان ينبض بالقوة والحماسة، وهو ما يتناسب والشعر التقليدي، كما أن اهتمامه كان مركزا على الوزن والقافية، فالتزم بوحدتهما في شعره، وتعددت أغراضه الشعرية، مع عنايته بشعر المناسبات الاجتماعية والسياسية التي استغرقت جل شعره، الأمر الذي جعل التعبير عن الذات قليلا، ومما قاله في قصيدة يواسي فيها الشعب السوري حين احتلت فرنسا دمشق بعد الحرب العالمية الأولى:

ابن صرح المجد عن أس الضحايا وأشد عرش العلا رغم البلايا
خض غمار الهول خوضا إنمـــا لؤلؤ التيجان في بحر المنايا
إن الموت لطلاب العـــــــلا لحياة، لا حياة أهل الدّنايـا
إنما الدنيا جهاد، من ينـــــــم يومه داسته أقدام الرزايـــا[5]

الملاحظ للغة القصيدة وموسيقاها وجزالة لفظها، واحتفالها بالمجازات يدرك أن الشاعر يتفق تماما والتعريف التراثي للشعر، الذي يتطابق وتعريف ابن خلدون للشعر في مقدمته في أنه :**"الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والقافية"[6]**، وهو ما توفر فعلا في تلك الأبيات، وفي المقابل لا نكاد نعثر على الذات بضمير "أنا"، مما يدل على أن مفهومه للشعر يبقى تقليديا، يحاكي الموروث الكلاسيكي في لغته وصوره وموسيقاه.

2.2.مفهوم الشعر عند محمد الصالح خبشاش:

أما مفهوم الشعر عند الشاعر محمد صالح خبشاش كما أورده المؤلف فلم يكن مغايرا لمفهوم أبي يقظان، في أن الشعر سبك ونظم وجودة العبارة، وهكذا فهو ينحت بهذه المفاهيم من القديم، أما الجديد فنراه من خلال محاولته التعبير عن الذات بصدق في شعره الوطني، حين يبدي تأسفه على ما آلت إليه الأوضاع بالجزائر، من تردي على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، نتيجة تسلط الاستعمار قبيل الحرب العالمية الثانية:

قلب الجزائر خفاق من الألم إذ بات في المركز المنحط من الأمم
جهل وفقر وأخلاق ملوثـــة بالكبر، فهو رهين البؤس والنقـــم
يا راجح العقل والإسلام رائده هل من طبيب يداوي القطر من سقم
كل المشاريع فيها السوس يسكنها وليس نجهل ما في السوس من عـدم[7]

هكذا نلاحظ أن خبشاش ينحت من القديم في سبك العبارة والصرامة في الوزن والقافية وهو ما يميز الشعر القديم، ومن جهة أخرى نراه يقول في النظم:

وأرشقه المهفهف في معان من الألفاظ تكسبه استنارة
وأنفذه نسيج من حماس فتذكي لوعة الأوطان ناره
وأردؤه عدو الطبع قول ثقيل الوضع مسلوب النضارة[8]

هذا ما استدل به شرفي الرفاعي على نزوع خبشاش نحو التجديد في الشعر، فهو في هذه الأبيات يرى أن الشعر الجيد هو الذي يقوم على صدق العاطفة، وسحر العبارة وإشراقها وإيحائها دون تكلف، كما يرى المؤلف أن صالح خبشاش بهذه القصيدة أراد تقليد المعركة التي أثارها العقاد والمازني لإعادة النظر في قضية المفاهيم الأدبية.[9]

وعليه يؤكد المؤلف أن هذا الاتجاه في المفهوم التقليدي للشعر، بالإضافة إلى محاولة السير على الحديث من خلال ذاتية التعبير عن عاطفة وطنية صادقة إزاء الأوضاع المزرية للجزائر إبان تلك الفترة، يعبر عن عدم نضج في الرؤية مقارنة بما هو موجود في المشرق العربي، حين يقول: **"فالنهضة الأدبية في الجزائر لم تبلغ مستوى نهضة المشرق العربي من حيث النضج أو غزارة الإنتاج"[10]**، فالبيئة الثقافية والسياسية في الجزائر، بفعل القهر السياسي والاجتماعي والحصار الذي ضرب على الحياة الثقافية في الجزائر لم يسمح للشعر والشعراء بتوسيع آفاقهم الفكرية، والتطلع إلى كل جديد، وتطبيق ذلك على مستوى قصائدهم.

3.2.مفهوم الشعر عند مفدي زكريا:

مما تناوله الكاتب في موقف الشاعر مفدي زكريا من الشعر بين القديم والحديث، أنه كان من أشد المحافظين على القصيدة التي تقوم على الوزن والقافية، من خلال الدعوة إلى التمسك بها، وهذا ردا على موجة التجديد التي تدعو إلى الشعر الحر، الذي يقوم على التنويع فيهما في القصيدة الواحدة، وفي ذلك يورد الكاتب هذه الأبيات للشاعر، للاستدلال على موقفه من موجة التجديد:

تنكروا للقوافي حين أعجزهم صوغ القوافي وضلوا عن ثناياها
قالوا جمود على الأوضاع وزنكم فشعرنا الحر لا يحتاج أوزانـــــا
فأين من جرس الإيقاع خلطكم ما الشعر، إن لم يكن دوحا وأغصانا[11]

فالمؤلف يرى أن مفدي زكريا **"يلتقي مع زملائه من الشعراء الجزائريين في اتجاههم التقليدي، والمحافظ في قضية مفهوم الشعر"[12]**، إلا أن سمة التجديد تختلف عن زملائه من حيث تلك السمة التي ميزت شعره على مستوى قوة العاطفة التي عبر عنها بواسطة "الأنا" التي تميزت بالصدق والقوة، ويرُد الكاتب ذلك إلى أن مفدي زكريا :**"كان من الرعيل الأول من مناضلي الحركة الوطنية، وتعرض بسبب ذلك للسجن والاضطهاد، مما جعل شعره الوطني تعبيرا صادقا وقويا عن مشاعره الذاتية والنابعة من تجربته وممارسته السياسية"[13]**، وفي رأينا، هذا يتوافق وإحدى أطروحات هانز روبرت هاوس*' في نظرية التلقي التي تؤكد على **"دور الوظيفة الاجتماعية والتواصلية للفن في عصر فقد فيه هذا الأخير استقلاله الذاتي تدريجيا، بحيث لم يعد يلزم نفسه، كما كان في الماضي، أيام انتشار الحركات الطليعية، بمقتضيات الابتكار والقطيعة والرفض المنظم للوضع القائم"[14]**، فعملية الإلزام الذاتي هي التي تخلق الصدق في التعبير عن التجربة الاجتماعية والجمالية، وهو ما يحقق متعة التلقي، سواء عند المبدع أو المتلقي للعمل الفني.

4.2.مفهوم الشعر عند رمضان حمود:

ذكر المؤلف أن الشاعر رمضان حمود انفرد برأي يختلف عمن سبقه من الشعراء الجزائريين في مفهومه للشعر، حيث يقول: **"الشعر تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النفس، لا دخل للوزن ولا القافية في ماهيته، وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتاضها الذوق والجمال"[15]**، ومما يذكره أيضا عن الشاعر أنه استند في تعريفه هذا على قول العرب أن القرآن الكريم هو شعر، وأن الرسول –صلى الله عليه وسلم- شاعر، مع علمهم أن القرآن كلام مرسل لا أثر للوزن والقافية فيه[16].

يبسط الرفاعي هذا الرأي من عدة نواحي، نذكر منها ما يلي:

-إن رمضان حمود كان طالبا في تونس، خلال سنوات 1920-1923-، والبيئة التونسية كانت تعيش نهضة أدبية مشابهة لتلك التي كانت موجودة في بلاد المشرق العربي.

-إن رمضان حمود جعل الشعر تعبيرا عن الوجدان، بعيدا عن الوصف والسطحية ونقيضها الإيحاء والرمز.

-مفهومه للشعر بهذا التعريف يتفق والتيار الرومانسي، حيث تلتقي فيها الصلة بين الشاعر وآراء جماعة الديوان: العقاد والمازني وميخائيل نعيمة، خاصة وأن الديوان قد صدر سنة 1921، والغربال عام 1923، وكلاهما تحدثا عن مفهوم الشعر، ويتلمس المؤلف هذا المفهوم عند رمضان حمود من خلال نصوصه التي يقول في مقطع منها:

فهذا خرير الماء شعر مرتـــّـــل وهذا غناء الحب ينشده الطيـــر

وهذا زئير الأسد تحمي عرينـــها وهذا صفير الريح ينطحه الصخر
وهذا قصيف الرعد في الجو ثائر وهذا غراب الليل يطرده الفـــــجر[17].

فرمضان حمود يوظف عناصر الطبيعة تماما كما وظفها ميخائيل نعيمة في مناجاة نفسية للنهر:

يا نهرُ هل نضبتْ مياهُكَ فانقطعتَ عن الخرير؟
أم قد هَرِمْتَ وخار عزمُكَ فانثنيتَ عن المسير؟

إلا أن كلاهما يختلفان في جودة الأسلوب، فأبيات حمود لا تخلو من الخطابية والوصف المباشر، في حين أن الامتزاج الوجداني بين الشاعر نعيمة مع عناصر الطبيعة قد أعطى للقصيدة حركة درامية أكسبتها جمالية أكثر.

5.2.مفهوم الشعر عند محمد العيد آل خليفة:

يدرك الكاتب أن الشاعر محمد العيد قد تطور أسلوبه مع تطور النهضة، إلا أن خصائص شعره في بدايتها اتسمت بالسطحية والبساطة والبعد عن العمق، هذه السمة التي جعلت الكاتب يقول بالمفهوم التقليدي لشعره، أي أنه لا يرى فيه إلا كلاما موزونا مقفى يدل على معنى[18]، ويستشهد في ذلك في قصيدة مناسبتية، كان قد نظمها محمد العيد في رثاء (رشيد)، وهي كما ذكر الكاتب شخصية رمزية دعت الصحافة الوطنية إلى رثائها، ويبدو للكاتب أن المقصود بها الأمير خالد، والمصير الذي انتهى إليه بسبب نشاطه الوطني.[19]:

نعم لك في العلا عمل مجيد ولكن ما جزاؤك يا رشيد؟
قضيت على الصبا أسفا وحزنا كذلك ينتج الغيظ الشديد

علام (فرانسو) يعلوك كعبا أنت لمثله الكفء الوحيد[20].

6.2.مفهوم الشعر عند محمد الصالح رمضان و علي صادق نساخ:

أما الشاعر محمد الصالح رمضان فيذكر الرفاعي المفهوم التقليدي ذاته لشعره، وهو ما يظهر جليا على مستوى النموذج الشعري الذي استدل به على حكمه النقدي هذا، وهو مقطع من قصيدة قام فيها محمد الصالح بتأبين شهيدين قتلا برصاص الشرطة الفرنسية، في مظاهرة وطنية للاحتجاج على التدخل في حرية الانتخابات، حيث استعملت فيها الشرطة الفرنسية العنف، فسقط العديد من الضحايا، ومما جاء في القصيدة:

تضوع مسكا الجزائر كلها دم طاهر من مسلمين تخرما
وأربعة جرحى جروحا مضرة كلومهم تجري إلى الآن بالدما
إلى عالم الأفلاك طار نشيده فكبرت الأفلاك في أفق السما
وفي العالم الأرضي سارت جرائد تخر من في الأرض طرا ترحما[21].

وبالنظر إلى القصيدة فإن الرفاعي يرى أن مفهوم محمد الصالح رمضان مفهوم تقليدي، بالنظر إلى ضحالة المضمون والتصوير المباشر الذي يخلو من الصور الشعرية التي تثير قوة التأثير، وعليه فإن الشعر عنده لا يتعدى كونه وزنا وقافية، وهو الحكم ذاته ينطبق على الشاعر علي صادق نساخ ، من حيث أن شعره الوطني يعتمد الخطاب المباشر الذي يحفل بالنصح والتوجيه، دون أن يحفل بالذات الشاعرة والصور الشعرية التي قد تنزاح عن المعنى المباشر، فتخلق الإيحاء الذي يكون مصدرا في كثير من الأحيان للجمالية الفنية في العمل الفني.

7.2.مفهوم الشعر عند مبارك جلواح:

يمكن القول إن مفهوم الشعر سيتغير مع هذا الشاعر حسب ما ذهب إليه شرفي الرفاعي، إذ أن حركة التجديد التي كان يرنو إليها الشعراء الذين سبق الحديث عنهم بدأت تظهر سماتها على مستوى النص الشعري الوطني، وهو ما يظهر جليا على مستوى قصيدة "ليلة على شاطئ لاسين" التي ساقها الكاتب كمثال على سمة التجديد هاته، والتي يقول فيها جلواح:

يا سين إني قد اتيتك شاكيا عزف الورى وقساوة الأيام
وبمهجتي يا سين جرح لم يزل من بعد أعوام ثلاث دامي
عالجته دهرا فلم يزدد سوى بعد عن الإبلال والالتئام

فتركته يدمي وقمت ملبيا لنداء موطني العليل الظامي[22].

هكذا نلاحظ كيف أن الشعر الوطني الجزائري يتأثر ويؤثر، بمضمونه وشكله، فقد تأثر بالتيارات الأدبية الداعية إلى التجديد، وقد قصد مؤلف الكتاب التيار الرومانسي الذي بدأت تجلياته تنشط في تلك المرحلة، إلا أن التقليد كان هو سبيل الشعراء في المرحلة الأولى، مع أنهم كان يرومون إلى الإبداع والخروج من المحاكاة، ويعزى -ذلك كما جاء في الكتاب- إلى طبيعة المرحلة التي كانت تتميز بحصار خانق على الروافد الثقافية على اختلافها، مما أدى إلى ضعف تكوين الشعراء، أما في المرحلة الأخيرة فإن ملامح التجديد قد بدت واضحة، وهذا ما توصل إليه المؤلف من خلال النماذج المذكورة سابقا.

3 . وظيفة الشعر الوطني الجزائري

يمكن أن نذكر أن وظيفة الشعر في تلك المراحل التاريخية التي حددها شرفي الرفاعي كانت تلزم الشاعر إلى درجة أن يهمل في أحيان كثيرة الوظيفة الجمالية التي يطلبها الفن، وقد تنوعت وظائفه تبعا لطبيعة تلك المرحلة التي مر بها الشعر الجزائري، والتي تتطلب منه الالتزام التام بقضايا تعد مصيرية بالنسبة لشعب مستعمر يرنو نحو الاستقلال والخروج من العبودية، وعليه فإن السؤال الذي نطرحه هنا:

-ما هي الوظيفة التي اضطلع بها الشعر الوطني الجزائري في تلك المراحل؟

-وإلى أي مدى قد أثرت الوظيفة على جمالية ذلك الشعر؟

1.3.الوظيفة الاجتماعية:

أعلن الكثير من الشعراء في قصائهم عن وظيفة شعرهم، وكيف أنه يعد سلاحا للإصلاح والإرشاد والتوجيه، ومن هؤلاء نجد رمضان حمود في قوله:

وشعري كالحسام يصون عرضا بلا حرب عوان ولا قتال
يمر على نفوس بائسات فيبعث في العروق دم الآمال
ففيه رحمة وعذاب قوم وفي سبل المكارم كالمثال[23].

الوظيفة الاجتماعية تظهر من خلال ما يبثه الشاعر من الأمل في نفس هذا الشعب، الذي يعيش صراعا قويا ضد قوى الظلم والعدوان، بالإضافة إلى أنه ينشر بينهم مكارم الأخلاق، وهي أهم وظيفة يقوم بها المصلح الاجتماعي، ومع ذلك فالشاعر لم يغفل عن الوظيفة الجمالية للشعر، ويظهر هذا من خلال تلك التشبيهات والفخر بالشعر، حين شبهه بالحسام، وأثر هذا الحسام في النفوس، ولهذا فهو يربط جمال الشعر بالوظيفة، وبالمضمون الذي يحمله هذا الشعر.

ومما ذهب إليه الرفاعي من آراء حول وظيفة الشعر عند هذا الشعر قوله: **"الشاعر لم يعن بالجانب الجمالي في شعره، وإنما كتب شعره إرضاء لعاطفته الوطني وحدها، وتعبيرا عما يحس به من آلام مجتمعه، ثم إن الجمهور الذي يتوجه إليه الشاعر شعره جمهور تغلب عليه الأمية، وهو لا يدرك من غايات الشعر الجمالية شيئا، وإنما الذي يعنيه من الشعر ما يتضمنه من الآراء الداعية إلى اليقظة والنهضة ومكافحة الاستعمار"[24]**، إنه حكم نقدي توصل إليه المؤلف بعد إيراد نماذج من شعر رمضان حمود، والوقوف عند مختلف الخصائص التي يتوفر عليه شعره، ويتلمس المؤلف الأسباب التي أدت إلى غياب الوظيفة الجمالية إلى طبيعة المرحلة، وأيضا إلى اختلاف المفاهيم من عصر إلى آخر، فالجمالية في رأي شعراء هذه المرحلة تتمثل في قوة التعبير عن القضية الوطنية، وآلام هذا الشعب.

2.3.الوظيفة السياسية:

نعني بالوظيفة السياسية في الشعر الوطني الجزائري، ما اضطلع به الشعراء لكي يعبروا بالكلمة عن الحياة الوطنية التي كانت تخضع للاستعمار، وما تتضمنه هذه الكلمة من دعوة إلى تحطيم قيوده، ومن أبرز النماذج التي أوردها شرفي الرفاعي في هذا السياق الشاعر أحمد سحنون، ومنها هذه الأبيات:

لم يعد للشعر تأثير ولو رج كالمدفع أو قصف الرعود
إن قومي ألفوا طعم الكرى هل يفيد الشعر في قوم رقود؟
لا أغني قبل أن أجني المني وأرى الإسلام خفاق البنود
لا أغني قبل تحرير الحمى فإذا حرر غنيت نشيدي[25].

الرؤيـة الوظيفيـة واضـحة فـي القصـيدة، وقـد قصـدها الشـاعر وصـرّح بهـا، فالشـعر عنـده التـزام بقضـية التحريـر والإصلاح والتوجيه، وتوعية الشعب الجزائري حتى ينهض ضد هذا المستعمر، وإن المؤلف يشير إلا أن نظـرة الشـاعر لم تخل من المفهوم الجمالي للشعر، ويظهر ذلك من خلال توظيفه لكلمة "أغني" التي تشـمل الـنغم، والكلمـة والموسـيقى والتأثير الذي ينتج نتيجة تفاعل تلك العناصـر والتـي تشـكل فـن الشـعر، وفـي هـذا ربـط بـين الالتـزام فـي الفـن والعنايـة بالجانب الجمالي، وهو مفهوم يعكس تأثير التيارات الأدبية الحديثة على الشعر الجزائري في تلك المرحلة من التاريخ.

كما كانت الوظيفة السياسية قد اضطلع بها أيضا الشاعر محمد العيد آل خليفـة، وهـذا مـا نستشـفه فـي هـذه المقطوعـة وهو يخاطب السلطات الفرنسية، منددا بالتميز العنصري الذي تمارسه في الجزائر:

يا دولة عنا تجافى جنبها رقي لنا وعن التجافي أقلعي
ننعى عليك الميز جهرا بين من ترعينهم والميز من قدم نعي.[26]

ويظهر أن المؤلف يتلمس في هذه المقطوعة بعض مظاهر الجمال، من ذلك تلك الموسيقى التي تنبع من تكـرار اللفـظ نفسه (تجافي/التجافي)، (عنا/لنا)، (الميز/الميز)، (ننعى/نعي)، وهنا يرى المؤلف أن الشـاعر فـي هـذه المرحلـة الأولـى يلتقي مع زملائه، ويحدد لشعره مهمة مزدوجة.

3.3.بين الوظيفة الجمالية والسياسية الاجتماعية:

إن الشعراء الجزائريين قد تغيرت نظرتهم إلى وظيفة الشعر، وهـذا فـي المرحلـة الثانيـة والثالثـة مـن النهضـة الأدبيـة التي شهدتها الجزائر، ما بين (1931-1954)، حيث يذكر شرفي الرفـاعي :**"إلا أن الـدارس لشـعرهم يسـتخلص منـه نظرة لوظيفة الشعر متميزة عن النظرة السابقة للشعراء التقليدين، ويبدو ذلـك خاصـة فـي ضـعف الجانـب الاجتمـاعي في شعرهم وفي قلة عنايتهم بمشاكل فيـه، بالإضـافة إلـى الاتجـاه بشـعرهم إلـى أعمـاق نفوسـهم يصـورون إحساسـها وتجاربهـا وموقفهـا الخـاص مـن أحـداث الحيـاة"[27]**، وقـد أفـاض المؤلـف فـي هـذا الاتجـاه الجديـد فـي الشـعر الـوطني الجزائري، فقد تخلص الشعراء من المبالغة في الوصف، والعنايـة بـاللفظ وتزويقـه بمختلـف المحسـنات، واتجهـوا اتجـاه الرومانسية التي تتميز بوضوح اللفظ ورقته، والذاتية في إبراز المواقف، دون إهمال للوظيفة الاجتماعية والسياسـية، بـل **"جـددوا النظـرة إليهـا وعمّقوهـا بتخطـيهم للنظـرة السـطحية التـي لا تبـرز الأبعـاد النفسـية والفكريـة للأحـداث مـع أهميتها"[28]**، ويمثل بأبيات أحمد سحنون في مناجاة للبحر:

يا بحر ما هذي الشكاة؟ ألست توصف بالعظم؟
أتضج من عبث السياسة كم أبادوكم هدم؟
ومن المعمر إذ طغى ومن المسيطر إذ ظلم؟

يقف المؤلف عند هذا النموذج وغيره ليعمل مقارنته بين شعر مرحلة سابقة تميزت بالخطابية والمباشـرة فـي التعبيـر، دون تأثير كبير، وبين شعر مرحلة لاحقة نقلت الشعر الوطني إلى التجديد على مستوى المعنى والمبنى.

ويورد المؤلف أيضا قصيدة لـعبد الله شريط ربط فيها بين ذاته المتألمة، وآلام شعبه ووطنـه، خاصـة وأن القصـيدة قد نظمها علم 1946، وهي السنة التي تلت حوادث 8 ماي، ومما جاء فيها:

يا رفيقي هل يهدأ القلب يوما فلقد هدّني بخفق وهمس؟
هل يعود الربيع والأمل الشارد يا شعر، والسلام لنفسي؟[29]

هكذا يخلص مؤلف الكتاب أن شعراء النهضة في مرحلتها الأولى، كانوا يتطلعون نحـو التجديـد، لكـن لـم يظهـر فـي شعرهم الذي تميز بالمباشرة والسطحية، وهو ما يعكس مفهومهم للشعر المتمثل في أنه التزام أولا وأخيرا، ومع المرحلة الثانية والثالثة ساير هذا الشعر النهضة الأدبية في المشرق، وتطور مفهوم الشعر لـديهم، وقـد انعكـس هـذا التجديـد علـى مستوى قصائدهم.

الخاتمة:

ومما نخلص في هذه الفسحة الأدبية التي عرضنا فيها رؤية أحمد شرفي الرفاعي إلى مفهوم الشعر الوطني الجزائري ووظيفته من خلال قراءة في كتابه إلى أن:

-إن الشعر الوطني الجزائري عايش في مرحلة سابقة فترة عصيبة عاشها هذا الشعب مع الاستعمار الفرنسي، وعليه فقد شارك في التنديد والاستنكار.

-إن الشعر الوطني الجزائري كان له مفهومين: تقليدي وحداثي، فالتقليدي كان يفهم الشعر وزنا وقافية وقضية مصيرية يعبر عنها، أما الحداثي هو التجديد على مستوى الشكل واللغة والتعبير، وإن المقصود بالتجديد، هو التيار الرومانسي الذي بات تجلياته تظهر في المرحلة الأولى من النهضة الأدبية في الجزائر.

-بالنظر إلى نماذج بعض الشعراء المرحلة الأولى والثانية نلاحظ اتجاههم نحو التقليد، وإن دعوا إلى التجديد-على الأقل على المستوى النظري-، أما الشعراء في المرحلة الثالثة، فقد طبقوا المفهوم الحداثي على مستوى القصيدة، وبالتالي جمعوا بين الوظيفة الجمالية والوظائف السياسية والاجتماعية، وهذا نتيجة لتطور المفاهيم، واتصالهم بالنهضة الأدبية في المشرق العربي.

الهوامش والإحالات:

*أصل هذا الكتاب أطروحة دكتوراه ناقشها أحمد شرفي الرفاعي تحت إشراف عبد الله الركيبي، بكلية الآداب واللغات، الجزائر العاصمة، سنة 1979.

1-أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010، ص5.

2- أبو اليقظان إبراهيم، ديوان أبي اليقظان، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1350ه، ص4.

3- عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني: الديوان، دار الشعب، القاهرة، ط3، د.ت، ص20.

4- أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص5.

5- إبراهيم أبو اليقظان: ديوان أبي يقظان، المطبعة العربية، الجزائر، 1930، ط1، ص84

6- عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، مطبعة التقدم، القاهرة، 1322، ص476.

7- محمد صالح خبشاش، جريدة النجاح، عدد 1955(عدد 3فيفري 1937).

8- المرجع نفسه، عدد 2063 (3مارس1937)

9- أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص147.

10-أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص5.

11- مفدي زكريا: اللهب المقدس، دار البعث، قسنطينة، 1973، ط2، 291.

12- المرجع نفسه، ص149.

13- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*ياوس هانز روبرت (H.R Jauss): ناقد أدبي ألماني ولد سنة 1921، أسس مدرسة "كانستنس"، اهتم بعملية تلقي العمل الفني والأدبي، من أهم أعماله: "من أجل جمالية تلقي العمل الفني"، و"نحو هيرمنوطيقا أدبية".

14- انظر: مارك جيمنيز: الجمالية المعاصرة، الاتجاهات والرهانات، ترجمة وتقديم: كمال بومنير، منشورات ضفاف بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص.ص117-118.

15- رمضان حمود: بذور الحياة، تونس، 1928، ص108.

16- انظر صالح خرفي: شعراء من الجزائر، الحلقة الأولى، مطبعة المعرفة، القاهرة، 1969، ص21.

17- المرجع نفسه.ص.104.

18- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق مصطفى كامل، مطبعة السعادة، القاهرة، ط2، 1963، ص12.

19- أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص157.

20- محمد العيد آل خليفة: ديوان محمد العيد، دار البعث، قسنطينة، 1967، ص24.

21- محمد الصالح رمضان، جريدة الشهاب: ج12، م13، (فيفري 1938) ص512.

22- مبارك جلواح، جريدة البصائر: عدد100، (18 فيفري 1938)

23- رمضان حمود، جريدة الشهاب: عدد 108، (4أوت 1927)، ص18.

24- أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص165.

25- أحمد سحنون: ديوان أحمد سحنون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص151.

26- محمد العيد آل خليفة: ديوان محمد العيد، دار البعث، قسنطينة، 1967، ص146.

27-أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص169.
28- المرجع نفسه، ص169.
29- عبد الله شريط: الرماد، ديوان شعر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص76.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010.
2. أحمد سحنون: ديوان أحمد سحنون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
3. إبراهيم أبو يقظان ، ديوان أبي اليقظان، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1350ه.
4. رمضان حمود: بذور الحياة، تونس، 1928،
5. صالح خرفي: شعراء من الجزائر، الحلقة الأولى، مطبعة المعرفة، القاهرة، 1969.
6. عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني : الديوان، ط3، دار الشعب، القاهرة، د.ت.
7. عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، مطبعة التقدم، القاهرة، 1322ه.
8. عبد الله شريط: الرماد، ديوان شعر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.
9. قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق مصطفى كامل، ط2، مطبعة السعادة، القاهرة.
10. مارك جيمينيز: الجمالية المعاصرة، الاتجاهات والرهانات، ترجمة وتقديم: كمال بومنير، ط1، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ، 2012.
11. مفدي زكريا: اللهب المقدس، ط2، دار البعث، قسنطينة، 1973.
12. محمد العيد آل خليفة: ديوان محمد العيد، دار البعث، قسنطينة، 1967.
13. جريدة البصائر: عدد100، (18 فيفري 1938).
14. جريدة النجاح، عدد 1955(عدد 3فيفري 1937).
15. جريدة الشهاب: عدد 108، (4أوت 1927).
16. ـــــــــــــ ج12، م13، (فيفري 1938).